التفكـــير اللسانيّ عند عـــلماء العقـــليّات المسلمين :
العضد الإيجيّ ، والسّعد التفتازانيّ ، والشّريف الجرجانيّ
نمـــــــــاذج

إعـــــداد

عماد أحمد سليمان زبـــــن

المشرف

الأستاذ الدكتور نهاد ياسين الموسى

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الأول، ٢٠١١

التفكير اللسانيّ عند علماء العقليّات المسلمين :
العضد الإيجيّ ، والسّعد التفتازانيّ ، والشّريف الجرجانيّ
نماذج

إعداد

عماد أحمد سليمان زبن

المشرف

الأستاذ الدكتور نهاد ياسين الموسى

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة
الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الأول، ٢٠١١

الإهــداء

إلى روح أبي الذي بذل الكثير من عمره ، وأنفق الكثير من ذاته وآماله ؛ إرصـــاداً منـــه لمعانقة مصداق تضحيته في أولاده ، فشاء الله تعالى أن أهدي ثواب عملـــي لروحـــه الطـــاهرة المضحيّة ، وأنا على ذُكْر من أنّني أقدّم لروحه انبلاج فجر ضعيف ، يتضاءل أمام نـــوره الـــذي يستطير في ثنايا وجودي وإنجازي ، وأقدّم نقطة ماء في بحره الذي يـــضطرب بـــآذيّ فـــضله ، وعباب رفده .

إلى أمّـــي التي ما قرأتْ كتاباً ، ولا خـــطّتْ يمينها سطراً ، ولكنّها أنمتْ فيّ أهلّة العلم ، وزرعت في قلبي حبّ العلماء ، وألبستني ثوب الرجاء ، آملة أن تُثمر في عقلي فروعُ العطاء .

إلى أرواح علمائنا القوَمة على حضارتنا وثقافتنا ، الذين بنوا صرح تراث عظيم ، ما زلنا نسلك بنوره سبل العلم ، وتشمَخ به صوى الأمانيّ في نفوسنا .

إلى الأئمة : العضد الإيجيّ ، والسعد التفتازانيّ ، والسيد الشريف الجرجانيّ ، الذين كانوا آصرة المحبة لتراث عظيم ، والذين مهّدوا سبيل النظر والتحقيق ، والذين بهـــم تعـــاظم إيمـــاني بإنجاز هذه الأمّة العظيمة .

إلى هؤلاء جميعاً أهدي جهدي المتواضع

شكر وتقدير

بعد شكر الله تعالى وحمده على نعمه التي لا تُعدّ ولا تحصى ، أجد من البرّ لأهل الفضل عليّ ، أن أشكر جهودهم التي كان لها الأثر العظيم في توطئة المسالك ، وإضاءة الحوالك في أثناء عملي ، الذين كانوا لي مورداً عذباً أنتجعه ، وأعبّ منه ماء زلالاً غدقاً ، فأشكر الأستاذ الدكتور نهاد الموسى ، الذي أشرف على هذه الأطروحة ، وأحاطني برعاية أهل العلم ، ومنحني من وقته وعلمه وصبره ، وحسن متابعته ، ودقيق توجيهاته ، وعظيم أدبه ، ورقيّ معاملته ، ما أفادني فائدة عظيمة في إنجاز أطروحتي .

كما أشكر الأساتذة الأكارم أعضاء لجنة المناقشة ، الأستاذ الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة، والدكتور جعفر نايف عبابنة ، والدكتور حسن خميس الملخ ، على موفور أدبهم وتلطفهم عليّ بقبول مناقشة هذه الأطروحة ، آخذاً بعين الاعتبار والكِلاءة كلّ توجيه يتفضلون به .

إلى أساتذتي الأكارم ، أقدّم عظيم شكري ، ولا زالوا بالخير موصولين.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص بلغة الرسالة	ز
المقدمة	١
تمهيد: الدراسات التراثية : العقليات واللسانيات	٧
الفصل الأول: مقولات المواضعة	٢١- ٩١
القضية الأولى : نشأة اللغة ومقولة التوقف	٢٢
القضية الثانية : المواضعة : مقولات الماهية	٣٥
القضية الثالثة:مقولات الصورة الذهنية	٥١
القضية الرابعة : مقولة الاعتباطيّة في الحدث اللسانيّ	٦٩
القضية الخامسة : مقولة الاقتصاد في قانون المواضعة	٨١
الفصل الثاني : مقولات علم الوضع والتفكير الدلالي	٩٢-١٩٠
المـــــــهاد : بين علم الوضع وعلم الدلالة	٩٣
القضية الأولى : مقولات الوضع التحقيقي	٩٧
القضية الثانية : مقولات الوضوح والخفاء في الدلالة	١٢٣
القضية الثالثة : مقولات الدلالة والإرادة	١٤٥
القضية الرابعة : مقولات اللفظ والمعنى	١٦١
الفصل الثالث : مقولات الكلام الإنسانيّ	١٩١-٢٧١
القضية الأولى : إنيّة الكلام الإنسانيّ	١٩٢
القضية الثانية : مقولات الكلام النفسيّ	٢٠٦

القضية الثالثة : مقولات الكلام : بين الإرادة والقدرة..... ٢١٩
القضية الرابعة : مقولات الكلام والعقل..... ٢٣٣
القضية الخامسة : مقولات الصّوت والحرف..... ٢٤٥
الفصل الرابع : مقولات التأويـــل..... ٢٧٢- ٣٤٥
القضية الأولى : إنيّـــة التأويل..... ٢٧٣
القضية الثانية : وسائط التأويل..... ٢٩٣
القضية الثالثة : قوانين التأويل..... ٣١٢
القضية الرابعة : ضوابط التأويل..... ٣٢٨
الخاتمة ٣٤٦
المصادر والمراجع..... ٣٥١
ملـــحق : ثبَـــــت مصطلحات الأطروحة..... ٣٧٣
الملخص باللغة الإنجليزية..... ٣٨٤

التفـكير اللّـــسانيّ عـند علماء العقليّات المسلمين :

العضد الإيجيّ ، والسّعد التفتازانيّ ، والشّريف الجرجانيّ

نمـــــــاذج

إعـــــداد

عماد أحمـد سليمان زبـــن

المـشرف

الأستاذ الدكتور نهاد ياسين الموسى

ملـــــــــخص

ارتبطت هذه الدراسة بتقدير الباحث بحالة اللسانيّات العربيّة المأزومة ، التي تستند في أغلب تطبيقاتها إلى اتّباع الكليّات اللسانيّة الوافدة عليها من ثقافات الآخر ، دون أن يكون لها شراكة حقيقيّة في صياغة العقل اللسانيّ العالميّ ، فجاءت هذه الأطروحة لتقترح صياغة لمعالجة حالة الأزمة هذه ، وذلك باستنطاق المخزون اللسانيّ في التراث العربيّ والإسلاميّ ، والكشف عن المقولات اللسانيّة الكامنة في أحشائه ، مستصحِبة في تسيارها الإيمان بشموليّة التبصّر اللسانيّ ، وذلك من خلال توسيع دائرة البحث في المقروء التراثيّ ؛ ليشمَل غير وصيد معرفيّ ، ولا يقتصر على الوصيد اللغويّ حسْب . واتخذ الباحث لتحقيق هذه الرؤية خُطة تتقوّم باجتراح حالة تعاقب لسانيّ ، تستند إلى الموجود اللسانيّ التراثيّ ، وتنطلق منه إلى فضاء لسانيّ أرحب ، يمكن أن يُسهم في صياغة عقل لسانيّ عربيّ إسلاميّ ، مستقلّ في ماهيّته المعرفيّة . وقد ابتنى الباحث من منطلق هذه الرؤية عدداً من الأهداف ، تنتظم عليها مكوّنات هذه الأطروحة . وهي :

١. الكشف عن التنظيرات اللسانيّة عند علماء العقليّات المسلمين ، ومحاولة تجريد الكليّات من خلال تفكيك تطبيقاتهم الفكريّة ؛ وتقرير المقولات اللسانيّة العامة في تآليفهم .

٢. الكشف عن أدوات التفكير اللسانيّ ، أو منهجيّة البحث اللسانيّ في العقل اللسانيّ الإسلاميّ ، فالهدف هنا يتعلق بأدوات البحث اللسانيّ في العقليّة الإسلاميّة .

٣. توفير نماذج للتفكير اللسانيّ المنتمي إلى معطىً ثقافيّ عربيّ إسلاميّ ، الأمر الذي يدفع إلى ديمومة التفكير اللسانيّ المستقلّ لدى المتلقي العربيّ ؛ أجلَ التحوّل في المشهد اللسانيّ العربيّ من حالة الاستهلاك المجرّد ، إلى حالة الخلق والتوليد .

٤. رفدُ بعض الدراسات اللسانيّة الحديثة التي تنهَد إلى معالجة الحالة اللسانيّة العربيّة المأزومة ، بمادة تقييم ونقد وتعديل ، تصلح للاعتماد في دوائر تحليلاتهم وتنظيراتهم ، وتساعدهم على إيجاد حلول للمشكلات اللسانيّة ، من خلال البحث في هذه البصائر التي تقدّمها الدراسة .

٥. تهدف هذه الدراسة إلى تقرير مبدأ الشموليّة في التفكير اللسانيّ العربيّ الإسلاميّ ؛ فتدفع إلى المزيد من البحث اللسانيّ في مخازن المعرفة كافّة ، وعدم الاقتصار على جهود اللغويّين حسْب ؛ الأمـــر الذي يحقق التكامليّة في الأنظار اللسانيّة العربيّة .

وقد اشتملت هذه الدراسة على ثماني عشرة قضية ، موزّعة على أربعة فصول . وقد افتتحتُ الأطروحة بتمهيد ، وناقشتُ فيه العناصر المركزيّة في تفكير علماء العقليات، وأهمية الدراسات اللسانية التراثية . ثمّ جاء الفصل الأول ليعالج مقولات المواضعة في خمس قضايا جوهريّة ، وقد ارتبطت الأولى بنشأة اللغة ، والثانية بمقولات ماهيّة المواضعة ، والثالثة بمقولات الصورة الذهنيّة ، والاستراتيجيّات العقليّة لقانون المواضعة ، والرابعة بمقولة الاعتباطيّة في الحدث اللسانيّ ، في مشاغل علماء العقليّات ، والخامسة بمقولة الاقتصاد في قانون المواضعة.

ثمّ جاء الفصل الثاني ليعالج مقولات علم الوضع والتفكير الدلاليّ في أربع قضايا مركزيّة ومهاد ، وحاولتُ في المهاد أن أربط بين مسائل علم الوضع ومسائل علم الدلالة ؛ روماً إلى رفد علم الدلالة بمعطىً لسانيّ عقليّ من جهة ، وقصداً إلى ربط أجزاء العلوم المتّصلة الأسباب في حدودها وموضوعاتها وثمرة دراستها من جهة أخرى . وارتبطت القضية الأولى في هذا الفصل بمقولات الوضع التحقيقيّ ، فكشفت عن المسائل الدقيقة لعلم الوضع في الفكر اللسانيّ عند علماء العقليّات ، وتعلّقت القضية الثانية بمقولات الوضوح والخفاء في الدلالة ، ثمّ جـــاءت القضية الثالثة ؛ لتعالج مقولات الدلالة والإرادة ، وانتهى الفصل إلى القضية الرابعة ، التي جاءت لتعالج مقولات اللفظ والمعنى . ثمّ جاء الفصل الثالث ليعالج مقولات الكلام الإنسانيّ في خمس قضايا مركزيّة ، وقد ارتبطت الأولى بإنيّة الكلام الإنسانيّ وحقيقته ، والثانية بمقولة الكلام النفسيّ ، والثالثة بمقولات الكـــلام بين الإرادة والقدرة ، والرابعة بمقولات الـــكلام والعقل ، والخامسة

بمقولات الصوت والحرف . ثمّ جاء الفصل الرابع ليعالج مقولات التأويل في مشاغل العقلانيّين في أربع قضايا جوهريّة ، وقد ارتبطت الأولى بإنيّة التأويل ، والكشف عن عناصر ماهية التأويل، والثانية حاولت الكشف عن وسائط التأويل النفسيّة ، ووسائط المقولات المجرّدة ، والثالثة عرضتْ قوانين التأويل المركزيّة التي تنبئ عنها مشاغل العقلانيّين الفكريّة ، والرابعة عرضتْ أبـــرز ضوابط التأويل .

أمّا الخاتمة ، فقد اشتملتْ على النتائج التي توصّلت إليها الدراسة ، وهذه أبرزها :

- إنّ المقولات اللسانيّة والبحوث اللغويّة الكامنة في مخزن التراث العربيّ الإسلاميّ ، تمثّل نموذجاً مشخّصاً واقعيّاً ، ودليلاً معرفيّاً صحيحاً ، على أصالة علم اللـــسانيّات في العقل العربيّ الإسلاميّ . وهذا مَصير إلى تقبّل هذا العلم بوصفه علماً من العلوم التي حاورها عقلنا التراثيّ ، ومن جهة أخرى ، فإنّ هذا الطرح يدفعنا إلى تصحيح الاعتماد على الموجود اللسانيّ العربيّ الإسلاميّ ؛ أجل الشروع في حالـــة تعاقـــب علميّة ، تسمح لنا أن نقف من هذا العلم موقف الشريك في بصائر الآخر اللسانيّة .
- أثبتت الدراسة علميّة الرؤية اللسانيّة عند علماء العقليّات المسلمين ، من خلال تقرير مقولة الإرجاء اللسانيّ (= التوقف) ، ويظهر هذا في مسألة نشأة اللغة ، التي قرّر فيها هؤلاء العلماء مقولة التوقف ، والتي قاموا بتصنيفها تصنيفاً علمياً منضبطاً ، ثمّ حاكموا آليّات الكشف اللسانيّ المتوافرة ؛ ليثبتوا عدم جدوى هذه الآليّات في إنتـــاج حكم مناسب لتصنيفها اليقينيّ أو العلميّ ، وهذا يدلّ على منهجهم القائم على علميّـــة النظر اللسانيّ .
- دقة البحث اللسانيّ عند علماء العقليّات المسلمين ، والشمول في جمع أجزاء المسألة اللسانيّة التي يعالجونها ، ويظهر ذلك من خلال بحوثهم فـــي المواضـــعة ، التـــي حرصوا على تحريرها ، وتحرير عناصرها البنائيّة : من تعاقد واستعمال واطّراد ، ودقة فحص مراحل انتقال الرمز من مرحلة الإنتاج ، إلى مرحلة التداول في مشاغل قانون المواضعة . وتبدو هذه الدقة أيضاً في بحث مقولة القصديّة في المواضـــعة ، أي قصد الواضع إلى إنتاج ترابطات ترامزيّة بين المعنى ورمزه ، والبحث في دور إرادة الواضع في قانون المواضعة ، والخلاف اللسانيّ في إثبات قصد هامشيّ فـــي قانون المواضعة .
- يؤمن علماء العقليّات المسلمون بقيمة التشارك المعرفيّ بين علم اللسان وغيره مـــن العلوم ، كعلم الفلسفة والكلام والمنطق والتشريح وعلوم الطبيعيّات بعامة ، التي تقدّم

أدوات كشف تساعد على تطوير البحث اللغويّ ، وتساعد على كشف أسرار الظاهرة اللغويّة ، وهذا المتّجه البينيّ تجده في بحوثهم المتعلقة بـــ : الوضـــع والـــصورة الذهنيـــّة ، وخصائص الاستجابة الذهنيّة عند الواضع ، وتقرير أنّ الوضع إنّما يكون لما يتصوّره الواضع في ذهـــنه ، وخصائص الصور الذهنيّة ، وكذلك البحث فـــي قوى النفس والإرادة والقدرة ، ودورها في الكلام والتأويل ، ودور العقل في الظاهرة اللغويّة ، والكلام على تجاويف الدماغ ، ومواضع القوى النفسيّة فيه .

- يقدّم علماء العقليّات بحثاً لسانياً تقابليّاً مبكّراً ، وذلك من خلال النظر في الظـــاهرة اللغوية مطلقة عن النظام اللغويّ الواحد ، ويقرّرون أحكاماً تتعلّـــق بهـــذه النظـــرة التقابليّة ، وتجد هذا في بحوثهم المتعلقة بمسألة اعتباطيّة الحدث اللسانيّ ، فهم ينفون وجود مناسبة طبيعيّة بين الدالّ والمدلول ، أو ترابط تلازميّ بين الرمز ومرجعه في الوضع الأول ، بالرجوع إلى طبيعة الظاهرة اللغويّة ، ومطلق تعدّد الأنظمـــة فـــي الظاهرة اللغويّة . وتجد هذا المتّجه التقابليّ في بحوثهم المتعلقـــة بمـــسألة الابتـــداء بالساكن ، الذي قرّروا إمكانه بدليل اللسان الخوارزميّ وغيره ، وتجده فـــي مـــسألة دلالة هيئة الفعل على الزمان ، ونفي دور الهيئة عن تحديد الزمان في لغات أخرى كالفارسيّة مثلاً . وأرى أنّ معرفة هؤلاء العلماء بغير لغةٍ ، ساعدهم على تطـــوير بحوثهم اللسانيّة ، وحملهم على دقة النظر اللسانيّ في الظاهرة اللغويّة .
- أثبتت الدراسة أهميّة منهج المناظرة اللسانيّة ، أو المطارحة المعرفيّة ، في عـــلاج القضايا اللسانيّة ، وقد انتهج هؤلاء العلماء هذا المنهج في معالجة القضايا اللسانيّة . وظهر أثر هذا المنهج في عمق بحوثهم اللسانيّة ، وكثرة تفريع المسائل اللسانيّة التي تحتاج إلى علاج علميّ ، والقدرة على اقتراح غير وجه من وجوه معالجة القضيّة ، والكشف عن ضعف الوجه اللسانيّ المقترح أو قوّته ، والحاجة إلى تطـــوير أدوات النظر اللسانيّ ، والغوص في أعماق افتراضيّة من الظاهرة اللغويّة .
- قدّمت الدراسة دليلاً على انتهاج علماء العقليّات المسلمين ، منهج النظر الدقيق في المؤتلف الداخليّ للظاهرة اللغويّة ، وأنّهم لم يستطلعوا أحكام هـــذه الظـــاهرة مـــن خارجها ، بل عمدوا إلى تفكيك الظاهرة ، وتحليل أبنيتها ، ووصف ما وقـــع عليـــه مصباح كشفهم اللسانيّ ، والدراسة طافحة بالأمثلة على هذا المتّجه العلميّ ، ويمكن التمثيل له بمباحث قوّة الكشف الدلاليّ وضعفه ، فقد ولجوا في أعمـــاق الظـــاهرة ، وفرزوا الأسباب التي من شأنها تقوية الكشف الدلاليّ أو إضعافه ، وقسموها أقساماً :

فثمة أسباب تتعلّق بنفس المتلقي ، وأسباب تتعلّق بالمقام ، وأسباب تتعلّق بالحالة الدلاليّة : كوجود وسائط أو عدم وجودها ، وعدد هذه الوسائط ، واحتماليّة امتصاص الدلالة لعناصر الإضعاف إلخ . وأجد أنّ بعض البحوث اللغويّة الحديثة ، لا سيّما في محيطنا العربيّ ، تفتقر إلى هذا المنهج الكشفيّ المتعلّق بخصائص الظاهرة اللغويّة في ذاتها ، فلعلّ في إبراز هذا المتّجه العلميّ عند علماء العقليّات ، دافعاً إلى ضرورة عدم الارتجال في الأحكام اللغويّة ، وضرورة اختيار الآلات الكشفيّة المناسبة ، التي تُسعف على تفكيك الظاهرة اللغويّة ، وقراءتها من الداخل .

- انسجام البصائر المعرفيّة عند علماء العقليّات ، مع جميع عناصر الظاهرة اللغويّة ، ورفضهم العقل اللسانيّ الإقصائيّ ، ويظهر ذلك من خلال موقفهم من مسألة الخوف من التأويل ، وميلهم إلى اعتبار العقل التأويليّ ، وردّهم كلّ إيراد على هذا العقل ، فهم يؤمنون بالعقل التأويليّ ، ويؤمنون بطاقات إنتاجه ، ويقفون على أثره العظيم في استكناه خبايا النصّ ، وقدرته على الاستجابة لنزوع الظاهرة الإنسانيّة إلى التغيّر والتطوّر .

المقدمة

الحمد لله الذي مدّ سابلة الأفهام ، وأعجز بكماله خواطر الأوهام ، والصّلاة والسلام على نبيّنا محمدٍ سيّدِ الأنام ، وخاتمِ الرسل العظام . وبعد :

فما زالت الجهود العربيّة في الحقل اللسانيّ لا تــغادر ، في الغالب ، حقول الاتباع ، ولا تنهد ، في أكثر تطبيقاتها ، إلا إلى إسقاط المقولات الكليّة التي تجرّدها اللسانيّات الحديثة على الموجود التراثيّ ؛ الأمر الذي ، ربما ، يقدّم تفسيراً إضافياً ، وتفكيكاً مضافاً لرسائل الموجود التراثيّ ، لكنه لا يقدّم نظريّة لسانيّة ، عربيّة الوجه واليد واللسان ، فالمشكلة المنهجيّة في ثقافتنا ، مرتبطة بحالة التسليم بهذه المقولات التي تتداح دوائرها في الثقافة العربية ، بوصفها آلات الكشف والقراءة وأدوات التفكيك ، منسحبة على الموجود الثقافيّ العربيّ مع معطياتها الثقافيّة القارّة في أحشائها ، وينضاف إلى هذا الأمر، حالة من الاسترخاء الذهنيّ لدى المتلقي العربيّ ، تجعله لا يغادر فضاء الاتباع : إما بتفسير المقروء التراثيّ بالكليّات اللسانيّة المجرّدة ، أو بمحاولة التأصيل بإيجاد نظائر تراثيّة لهذه المقولات اللسانيّة ، أو بحالة من القطيعة معَ التراث ، وركوب حومة العصرنة اللسانيّة ؛ أجلَ معالجة الإشكالات اللسانيّة على وفق الطرح الثقافيّ الحديث المحض ، الذي يعاني من مشكلات جوهريّة ، ستفضي بالتلازم إلى ديمومة الأزمة اللسانيّة العربية .

ومن واقع هذا الطرح ، تحاول هذه الدراسة الادّغام في هذه المشكلة اللسانيّة ، واقتراح حلول لها ، تمثل بَذرة مستأنفة في سبيل الإعداد لنظريّة لسانيّة صافية الرحم ، عربية الميلاد والنشأة ، أحاول فيها تجريد مقولات لسانيّة قارّة في تطبيقات المنظّرين المسلمين الذين انبثقت أبصارهم من المعطى الثقافيّ الفكريّ الإسلاميّ العربيّ ، آملاً أن تنضمّ هذه الدراسة إلى أخواتــها ، الأمر الذي يشكّل متّجها تنظيريّاً لسانيّاً خاصاً بمعطياتنا الثقافية ؛ يفتح أمام الأجيال اللاحقة أبواب النظر والنقد والتمحيص والاســتكناه والسبر العلميّ ، في موجود لسانيّ لا يرتكس في شواحط التناقضات والمثبطات ، وهذا الذي يدعم رؤيتي في تقرير ثقافة لسانيّة عربيّة محضــة ، نعالج بها مشكلاتنا اللسانيّة ، ونتبصّر بها في تحليل الظواهر اللغوية وتشخيصها ، وأعني بالظواهر اللغوية : الظواهر اللغوية عامة بالمفهوم الشموليّ للكليّات اللسانيّة .

وفي الإطار النظريّ ، يجدر أن أقف عند الواقع الاصطلاحيّ في عنوان الأطروحة . فأقف أولا عند مصطلح التفكير اللسانيّ ، فهو مصطلح مقول على التشاكك ، يتّسع في الاستخدام ويضيق بالإرادة ، ولعلّي أتجاوز به ما استقرّ من مفهوم التفكير المرتبط بحركة العقل في التصورات ، إلى فضاء أوسع ، يشمَل القضايا اللغويّة الكليّة وطريقة معالجتها ، والقرارات اللسانيّة ، أو قل : المقولات اللسانيّة الكليّة التي قرّرها العقل اللغويّ عند هؤلاء العلماء ، إذن هو حَراك عقليّ ، لكنّه حَراك شموليّ يعرض الظاهرة اللغويّة ، ويعمل على تفكيكها وتفسيرها ، ثم يستنبط ، من جرا هذه المعالجة ، مقولاتٍ لسانية مفتوحة لقراءة لسانيّة جديدة ، تسعى هذه الدراسة في سبيل تحقيقها ، فأنا أرنو في هذا الطرح إلى تقرير المقولة اللسانيّة ، وتقرير طريقة المعالجة التي أفضت إليها ، ووجدت من المناسب أن أعبر عن الأمرين بـ: التفكير اللسانيّ ، لاسيّما أنّ مصطلح اللسانيات بات يتمتع بقدر من الاستقرار، يجعلني أطمئنّ إلى قدرته على إيصال هذه المرادات العلمية ، فهو تفكير يتصف باللسانيّة ؛ إذ إنّني أمنع الوصول إلى مقولات لسانية قارّة ، بالإفضاء الاتفاقي ، لكنها معالجة وتفكيك وفلسفة وتحليل ومناهج ، أحيل عادةً الوصول إلى مقولات لسانية بدونها .

ثمّ أقف عند مصطلح : العقليات ، والعقليات : القضايا التي يكون دليلها عقلياً ، بمعنى أنّ ثبوتها لا يتوقف على دليل سمعيّ أو نقليّ ، ويقابلها القضايا السمعيّة أو النقليّة ، وعلماء العقليات هم المشتغلون بتقرير المجرّدات العقليّة ، أي تقرير القضايا التي تَثبت بالدليل العقلي ، ولا تتوقف على النقل أو مطلق السمع ، فيدخل في هذه الدائرة علوم : الكلام ، والمنطق، والفلسفة ، والتصوف الفلسفيّ ، وأصول التفسير بالرأي ، وكثير من مسائل أصول الفقه .

وفي حقل العينة ، تبرز مشكلة مسوّغ الاختيار، وأحاول ، ههنا ، الإجابة عن سؤالين:
الأول : لماذا اخترتُ علماء العقليات ؟ الثاني : لماذا اخترتُ هؤلاء العلماء منهم ، وقد سبقهم من سبق من علماء العقليات ؟ ولعلي أجد في القانون اللسانيّ الشموليّ إجابة صالحة عن السؤال الأول ، فمشكلة أكثر المنظّرين الأوَل قصْرُهم التصور اللغويّ على المشتغلين في حقول اللغة حسْب ، لكنّنا نتّبع قانوناً لسانيّاً يتمدّد في دوائرَ أوسع ؛ أجلَ تجريد المقولات والكليّات ؛ فأسعى في تجريد التنظيرات اللسانيّة في فضاءات الفلاسفة ، والأصوليّين ، والمتكلمين ، والمفسرين ، والنحويّين ، واللغويّين ، وغيرها من الفضاءات المعرفيّة . والحقّ أن من خبر كتب العقليّات في التراث الإسلاميّ ؛ يعلم أنها تحمل في بطونها ذخيرة ثرّة من التنظير اللسانيّ ، وأنّ الكشف عنها بات حاجة علمية ملحّة ؛ من أجل تحقيق الرؤية المومى إليها .

وفي علاج السؤال الثاني ، أشير إلى فكرة المحاكمة اللسانيّة ، أو المناظرة اللسانيّة ، فإذا قام التنظير اللسانيّ على ساق الحوار العلميّ ، والمناظرة الفكريّة ، وإيراد الإشكالات واقتراح الحلول ، زاد النظر ، في تقديري ، عمقاً ، وازداد التنظير ثباتاً ، والنتائج صدقاً ، وتشجّرت الرؤى اللسانيّة ، وتفرّعت مسائلها ، وازدادت مباحثها ، الأمر الذي يجعل هذه البصائر ألصق بالطبيعة اللسانيّة الشموليّة ، متّسمة بالمرونة والقدرة على النفاذ في عمق المباحث التي تعالجها ، دون الوقوف عند حدود الهويّة المعرفيّة لتلك المباحث . وهذه المحاكمات اللسانيّة أو الفكريّة لم أجدها ، في حدود اطلاعي ، بهذه الدرجة من التحقق والتركيز والتقرير ، عند علماء العقليات ، كما هي عند هؤلاء العلماء الثلاثة : العضد الإيجيّ ، والسعد التفتازانيّ ، والسيّد الشريف الجرجانيّ . فنادراً ما يخلو كتاب للعضد من حاشية للسعد ، وتكاد لا تخلو حاشية للسعد أو كتـــاب ، من حاشية للشريف ، وفي كل كتاب تجد مناظرة فكريّة ، ومطارحة علميّة ، وإيرادات نظريّة تفضـــي إلى نتائج موافقة أو مغايرة ، في حالة يمكن أن تكون نوع مثاقفة فكريّة كلاميّة أصوليّة لسانيّة .

وأضيف إلى هذا تنوّع موضوعات التأليف عند هؤلاء العلماء ، فقد تركوا تآليف في: علم الكلام ، والمنطق ، والأصول ، والنحو ، والبلاغة ، والصرف ، وشروح الحديث الشريف ، والتفسير ؛ الأمر الذي يجعل هذه التآليف رقعة صالحة لإخصاب الفكر اللسانيّ العربيّ ، أضف إلى هذا أن أكثر علماء العقليّات الذين تركوا ميـــراثاً لسانياً في بطون تآليفهم ، قد تمّت دراسة أنظارهم بمستويات بحثيّة متباينة .

ثمّ إنّ الطرح الآنـــف الذي يكشف عن مشكلة الدراسة ، يكشف أيضاً عن أهميّة هذه الدراسة ، التي يمكن تقريرها بالنقاط الآتيّة :

الأولى : ارتباط هذه الدراسة بمتّجه بينيّ ، يحاول تنظير البصائر اللسانيّة بتجذيرها تراثيـــاً ، بمعنى أنها تحاول تقرير الكليّات اللسانيّة عند المنظّرين المسلمين ، بقصد ضمان ديمومة هذا التقرير مشبعاً بالمُعطى الثقافيّ الخاص ، الأمر الذي يحقق هويّة علميّة مستقلة لهذه العلوم ، وليســت هذه الدراسة دعوة إلى التجمّد عند حدود المنجز اللسانيّ التراثيّ العربيّ .

الثانية : محاولة إدراج هذه الدراسة في دوائر الحلول المستأنفة لحالة الفكر اللسانيّ العربيّ الحاضر المأزوم ، من خلال اقتراح مرحلة تقرير البصائر اللسانيّة العربيّة ، من حالة التجذّر ، إلى حالة الارتقاء والنمو ، إلى حالة الاكتمال على وفق استراتيجيّات النشوء والتطور ، ومحاولة الوصول إلى خطة انطلاق لسانيّ مقترح ، في محيطنا المعرفيّ .

الثالثة : تفتح هذه الدراسة ، في رؤيتها ، أبواب النظر المستأنف عند اللاحقين ، في معطيات الدرس اللسانيّ ، على وفق مقتضيات البنى الثقافيّة الخاصة بهم ، الأمر الذي ينفي عن الدراسات اللاحقة في هذا المجال الشتات المعرفيّ ، أو الاضمحلال الثقافيّ ، أو الذوبان الفكريّ.

الرابعة : تقف هذه الدراسة مع أخواتها (السابقة واللاحقة) ؛ لتقدم مشروعاً لسانيّاً منتمياً إلى المعطى الثقافيّ ، تحاول أن تجرّد به ، مقولات لسانيّة ، تنضاف إلى الموجود اللسانيّ العالمـــيّ ، الأمر الذي يحقق العقل اللسانيّ العربيّ حاضراً ماثلا في المحافل اللسانيّة .

الخامسة : ارتباط هذه الدراسة بمتّجه الكشف اللسانيّ ، وتقرير الحقيقة المعرفيّة ، من خلال تفكيك عناصر تراثيّة لم تزل رسائل مغلقة أمام العقل السابر، والبحث العلميّ . وهذا يؤدي إلى دعم البحث اللسانيّ العربيّ وإخصابه .

السادسة : ارتباط هذه الدراسة بأعلام بارزين في إطار الفكر الإسلاميّ ، قدّموا جهوداً علميّة في تقرير المقولات الفكريّة واللسانيّة ، ويسهم كشف مقولاتهم في تقرير السؤال المعرفيّ اللسانيّ الإسلاميّ والعربيّ .

ولتحقيق أهداف الدراسة ، عمدتُ إلى جمع تراث هؤلاء العلماء الثلاثة العلميّ ، بين مطبوع ومخطوط ، ثمّ قرأتُه وقمتُ بجمع المقولات اللسانيّة الكامنة فيه ، فتحصّل عندي مقولات لسانيّة مباشرة ، تتفاعل في سياق لغويّ أو كلاميّ أو أصوليّ ، ومقولات لسانيّة غير مباشرة ، وأقصد بها المقولات المستنبطة من مشاغل هؤلاء العلماء الفكريّة ، التي لم يصرّحوا بها ، ولكنّها جزء من مقاصدهم المعرفيّة ، في القضايا التي يعالجونها . ثمّ قمتُ بدراسة هذه المقولات، وجمعتُ هذا النّثار في قسِمات منهجيّة ؛ أجلَ الوصول إلى نتائج علميّة مضبوطة .

ولما رأيتُ أنّ مسائل الدراسة وثيقة الاتصال ، اتخذتُ لجمعها خُطة تشبه ما فعله عبد السلام المسدي في دراسته (التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة) ، فعمدتُ إلى تقليل العناوين الفرعيّة ؛ أجلَ الحفاظ على وثاقة الصلة بين المسائل المطروحة . وقد جمعتُ القضايا الرئيسة ونثرتُ في أحشائها المسائل المنضوية تحتها ، فتحصّل عندي ثماني عشرة قضية ، موزّعة على أربعة فصول . وقد افتتحتُ الأطروحة بتمهيد ، وناقشتُ فيه العناصر المركزية في تفكير علماء العقليات ، وأهمية الدراسات اللسانية التراثية . ثمّ جاء الفصل الأول ليعالج مقولات المواضعة في خمس قضايا جوهريّة ، وقد ارتبطت الأولى بنشأة اللغة ، والثانية بمقولات ماهية المواضعة، والثالثة بمقولات الصورة الذهنيّة ، والاستراتيجيّات العقليّة لقانون المواضعة ، والرابعة بمقولة الاعتباطيّة في الحدث اللسانيّ ، في مشاغل علماء العقليّات ، والخامسة بمقولة الاقتصاد في قانون المواضعة .

ثمّ جاء الفصل الثاني ليعالج مقولات علم الوضع والتفكير الدلاليّ في أربع قضايا مركزيّة ومهاد ، وحاولتُ في المهاد أن أربط بين مسائل علم الوضع ومسائل علم الدلالة ؛ روماً إلى رفد علم الدلالة بمعطىً لسانيّ عقليّ من جهة ، وقصداً إلى ربط أجزاء العلوم المتّصلة الأسباب في حدودها وموضوعاتها وثمرة دراستها من جهة أخرى . وارتبطت القضية الأولى في هذا الفصل بمقولات الوضع التحقيقيّ ، فكشفت عن المسائل الدقيقة لعلم الوضع في الفكر اللسانيّ عند علماء العقليّات ، وتعلّقت القضية الثانية بمقولات الوضوح والخفاء في الدلالة ، ثمّ جاءت القضية الثالثـــة ؛ لتعالج مقولات الدلالة والإرادة ، وانتهى الفصل إلى القضية الرابعة ، التي جاءت لتعالج مقولات اللفظ والمعنى . ثمّ جاء الفصل الثالث ليعالج مقولات الكلام الإنسانيّ في خمس قضايا مركزيّة ، وقد ارتبطت الأولى بإنيّة الكلام الإنسانيّ وحقيقته ، والثانية بمقولة الكلام النفسيّ ، والثالثة بمقولات الكـــلام بين الإرادة والقدرة ، والرابعة بمقولات الـــكلام والعقل ، والخامسة بمقولات الصوت والحرف . ثمّ جاء الفصل الرابع ليعالج مقولات التأويل في مشاغل العقلانيّين في أربع قضايا جوهريّة ، وقد ارتبطت الأولى بإنيّة التأويل ، والكشف عن عناصر ماهية التأويل ، والثانية حاولت الكشف عن وسائط التأويل النفسيّة ، ووسائط المقولات المجرّدة ، والثالثة عرضت قوانين التأويل المركزيّة التي تنبئ عنها مشاغل العقلانيّين الفكريّة ، والرابعة عرضتْ أبـــرز ضوابط التأويل .

وفي إطار الحديث عن منهجيّة الأطروحة ، يجدر أن أذكر أنّ هذه الدراسة لم تهدف إلى تجذير المقولات اللسانيّة الماثلة في العقل الحاضر في المقروء التراثيّ العربيّ ، أو تُقيم مقارنات بين الموجود اللسانيّ الماثل ، والكليّات اللسانيّة القـــارّة في المخزون المعرفيّ العربيّ ، وإن جاء هذا الأمر في أثناء الأطروحة ، فإنّما يجيء من باب التنبيه ، لا من باب القصد أو من باب الغرض المركزيّ لها ؛ إذ قد تلحّ الحقيقة العلميّة ، على ذكر مثل هذه التفاصيل ، فتغري الباحثَ بإحداثها عرَضاً وليس قصداً منهجياً أصيلاً .

وأمّا مصادر هذه الأطروحة ومراجعها ، فقد جاءت متنوّعة ، ووثيقة الاتصال بطبيعة الدراسة ، ولا معدى ، بتقديري ، عن تطلابها والتوكّؤ عليها . وقد تقوّمتْ في خمسة أنواع :

النوع الأول : المصادر الرئيسة ، وأقصد بها تآليف العلماء الثلاثة (العضد والسعد والشريف)، وقد تنوّعت بين مطبوع ومخطوط ، ثمّ إنّني حرَصتُ على جمع هذه المخـــطوطات من مظانّها؛ روماً مني لتحقيق شموليّة الرؤية في فكر هؤلاء العلماء ، والتزمتُ تقديم الرجوع إلى المصدر المطبوع ، المحقق تحقيقاً علميّاً ، متى وجد ، ومن خبايا الجهد في هذه الأطروحة ، أنّني كنت أفتقد مصدراً ما من كتب هؤلاء العلماء ؛ فأجهد في تحصيل مخطوطته ، ثمّ يقع لي أنْ أجده

التمهـــيد

الدراسات التراثية : العقليات واللسانيات

مدخل :

ما زال علم اللسان الحديث ، يعاني في محيطنا المعرفيّ أزمة الفهم والتقبّل ، وشأن كل حديث ، تتنازعه تيارات التظنّي عند المحافظين ، وبريق الجديد عند دعاة الحداثة ، ويبقى رجع النظر فيه ، في أكثر انتقاداتنا ، مرتبط بعلائق نفسية ، أو عوائــق ماورائية ، هي ، بتقديري ، خارج الرقعة المنهجية لنقد العلوم ، مباينة في أغلبها للعناصر الحقيقية لهذا العلم .

فمن جهة ، لا نزايل في المشهد اللسانيّ العالميّ ، حالة التلقي المحض ، أو الاســتهلاك في كثير من تطبيقاتنا ، وأقصد به : مجرّد إسقاط الكليات اللسانية على جسد اللغة العربيــة ، أو على الثقافة العربية ، فنرضى من الغنيمة بالإياب ، ونكتفي بالاتّباع وصفاً لتقــدمنا ، وبمقــدار تعمقنا في فهم الكليات اللسانية الوافدة ، ثم تقرير المتّجه الإجرائيّ في صبغ المعطـــى الثقــافيّ العربيّ بخصائص هذه الأطروحة اللسانية ، يتقرر مستوى تقدمنا لسانياً ، ولكننا ، مع نجاحنا في التطبيق ظاهراً ، لم نقدم نظرية لسانية تفسح لنا موقعاً معرفياً كافياً في المشهد اللسانيّ العــالميّ المعاصر .

ومن جهة أخرى ، يعاني بعضنا جموداً معرفياً ، يلقي بظلاله على الحالــة الثقافيــة ، فيسدل على الماضي ستائر القداسة المطلقة ، ويتحصّن بقلاع التراث ؛ ليرشق بسهام الــرفض والإقصاء كل وافد مستحدَث ؛ فيحرم العقل العربيّ من فوائد النظر الإنسانيّ ، ونتائج المعرفــة البشرية ، وفي كثير من الأحيان ، لا ينبني هذا الرفض إلا على مجرّد الموقــف النفــسيّ ، أو الريبة التي ولّدها تراكم ثقافيّ لا يمُتّ لهذه العلوم المنتقدة بصلة .

فبين الجمود والتحرر غير المضبوط ، يعاني العقل العربيّ عوامل المدّ والجزر في تقبل أكثر العلوم الحديثة ، لا العلوم اللسانية حسب ، وهذا الطرح يُسلمنا إلى الاعتراف بوجود حالــة تأزّم معرفيّ في العقل العربيّ المعاصر ، تدخل فيها المسألة اللسانية دخولاً أولياً .

وتفرض رؤيتي في تفهّم حقيقة الأزمة اللسانية في العقل العربــيّ ، و تفهّــم عناصــر الانطلاق من أسر هذه الأزمة، فرضية هذه الدراسة التي أقترح بها حلاً مستأنفاً لحالة التأزّم في الفكر اللسانيّ العربيّ ، من خلال تقرير مراحل بناء النظرية اللسانية العربية، من حالة التجذّر ، إلى حالة الارتقاء والنمو ، إلى حالة الاكتمال التي تضمن الدخول في حيّز الإنتاجية اللــسانية ، المتمثلة بتقرير النظريات ، والمشاركة في الكليات العلمية ، وإنتاج النماذج اللــسانية المناســبة لخصائص لغتنا وثقافتنا الذاتية .

وهذا الحلّ المستأنف يقرّر افتراضاً علميّاً مبدئياً ، وهو أنّ الكشف عن المقولات اللسانية في المذخور التراثيّ العربيّ والإسلاميّ ، مرحلة أساسية لا يجوز علمياً التجاوز عنها، وهذا الكشف يجب أن يتّسم بالشمولية ، أعني شمولية المصدر ، فتتسع دائرة استنباط المقولات اللسانية لتشمل رقعة معرفية واسعة ، ولا يقتصر الكشف على أنظار اللغويين ، أو المشتغلين باللغة حسب ، بل يجب أن تتمدّد أدوات هذا الاستكناه المعرفيّ لتشمل بالإضافة إلى أنظار اللغويين أنظار : الأصوليين ، والمناطقة ، وعلماء الكلام ، والمفسرين ، وعلماء الجدل والمناظرة ، وغيرها من الحقول المعرفية التي عالجها العقل العربيّ والإسلاميّ ، لأننا بهذا نقدّم قاعدة انطلاق لسانيّ ، ونضمن وجود حالة علمية تعاقبية ، نقرّر بها بصائرنا اللسانية الحديثة دون تكرار ، أو انقطاع عن الواقع الثقافيّ الذي ننتمي إليه .

ولا يخفى أنّ هذه الدراسة ، من حيث الإطار النظريّ ، تتصل بمتجهين : الدراسات العقليّة ، التي تتفاعل في مشاغل علماء العقليات ، والدراسات اللسانيّة التراثية ، التي تتّصل بسبب وثيق بالمذخور المعرفيّ في مخازن التراث . لذلك فإنّني سأمهّد لهذه الدراسة بمعالجة المتجهين ، بمقدار ما يحقق حالة كشف عن مسوّغات الدراسة ، وعن إطارها النظريّ .

العناصر المركزيّة في تفكير علماء العقليّات

سأحاول هنا أن أكشف عن أبرز عناصر التفكير ، والسمات المنهجية التي يتميّز بها علماء العقليّات في معالجة القضايا ، وتبدو ثمرة هذا الكشف ، في تحقيق قناعة بصلوح مناهجهم لمعالجة المسائل اللسانية ، من جهة ، وفي تقرير مسوّغ اختيارهم ، من جهة أخرى، ثمّ أكشف عن العينة التي اتخذتها الدراسة ، وأقصد بها العلماء الثلاثة ، وأطلّ على حدودهم التعريفيّة ، وميزاتهم المعرفيّة ؛ بمقدار ما تسمح به هذه المساحة التمهيدية . وأبدأ بتقرير أبرز السمات المنهجيّة التي يتميّز بها علماء العقليّات ، ويمكن أن ألخّصها في النقاط المركزية الآتية :

الأولى : العقليّات هي المقولات التي يكون دليلها عقلياً ، بمعنى أنّ ثبوتها لا يتوقف على دليل سمعيّ أو نقليّ ، ويقابلها القضايا السمعيّة أو النقليّة ، وعلماء العقليات هم المشتغلون بتقرير المجرّدات العقليّة ، أي تقرير القضايا التي تثبت بالدليل العقلي ، ولا تتوقف على النقل أو مطلق السمع . وهذا المجال المعرفيّ ، فرض سمة الدقة في مشاغل العقلانيين ، وهذا ما يطالعه كلّ من ينظر في تآليفهم ، فهم يدققون في تفاصيل القضايا التي يعالجونها ، ويكثر هذا في

تطبيقاتهم المتعلقة بمحاكمة الحدود والأقوال الشارحة ، والمصطلحات ، كما يدققون في تقرير حدود العلوم ، ومسائلها ، وعللها المادية والغائية ، كما تبدو هذه الدقة في اختيار آليات المنهج ، وآلات الكشف التي يعالجون بها القضايا .

الثانية : الغوص في القضية التي يعالجونها ، وتفكيك أبنيتها ، والكشف عن قوانينها الداخليّة ، قبل إصدار قرار علميّ . وهذا أبرز ما يتميّز به علماء العقليّات ، فلا يقفون في معالجاتهم المعرفية عند الحدود السطحيّة للقضية ، بل يحققون حالة علمية تكامليّة ، من خلال تحليل الظاهرة أو القضية ، وتصنيف عناصرها البنائيّة ، لذلك تتسم بصائرهم بالعمق والجدّة.

الثالثة : تفريع المسائل ، وكثرة البصائر الافتراضية ، وهذا ، بتقديري ، يرجع إلى سمة التعمق في القضايا ، الأمر الذي يفتح أبواب استئناف التبصّر المعرفيّ ، في وجوه عميقة وخفية من القضية التي يعالجونها .

الرابعة : المناظرة المعرفية ، والمطارحات العلمية في أثناء علاج القضايا ، وهذا ما جعل كتب العقلانيين طافحة بالإيرادات المتبادلة ، والتعقيبات والردود عليها ، كما أنّ الناظر في كتبهم يجدهم يكثرون من الإيرادات المفترضة ، من خلال استشعار أقوال مضادّة للخصوم، ثم ينشغلون في اجتراح ردود على هذه الإيرادات . ولا يخفى أنّ لمنهج المناظرة المعرفية فضلاً عظيماً في عمليّة تحليل القضايا ، والغوص في أعماقها ، والتنبّه لجوانب فيها، ربما كانت لتخفى، لولا هذا المنهج المعرفيّ التبادليّ .

الخامسة : سعة المساحة المعرفيّة التي تعالجها مشاغل علماء العقليّات ، بسبب امتلاك آلات كشف عقليّة ، تمكّن الناظر من محاكمة رقعة معرفية واسعة ومتشعّبة ، لذلك يَدخل علماء العقليات في العلوم دخولَ المشارك الحقيقيّ الفاعل ، فتجد لهم مشاركات حقيقية في علوم اللغة والفقه والتفسير والحديث وغيرها ، فضلاً عن العلوم العقلية المحضة التي هي أصل صنعتهم .

السادسة : الموضوعية في المعالجة ، وهذه سمة تفرضها طبيعة القواعد العقلية ، فتجد هؤلاء العلماء ، في حالة محاورة دائمة للقضايا الطارئة ، أو القضايا القارة في المقروء الثقافيّ ، غير مستسلمين لكثير من القرارات العلمية التي ربما كانت دوائرها تتداح في مساحات التسليم والإذعان ، وهم معَ هذا يجرّدون القضايا من قناعاتهم القارّة ، ويخضعونها لمطلق القاعدة العقلية ، وهذه سمة قائمة في معظم تطبيقاتهم بلا مثنويّة ، ويجدها كلّ من يعتاد النظر في تآليفهم.